"تهميش الآخر في شعر الأحزاب السياسية في العصر الأموي"

د/ حمدي عقيلة عبد المنعم

يُعدّ نسق (تهميش الآخر) أحد الأنساق الثقافية السَّلبيَّة التي طغى حضورها على شعر الأحزاب السياسية في العصر الأموي، ولعلَّ ذلك يرجع إلى صراع هذه الأحزاب، وتنازعها على السُّلطة؛ فلقد حفل العصر الأموي باعتراكٍ سياسي كبير حول مسألة الخلافة، وتنازعٍ بين فرقٍ وأحزابٍ كثيرة؛ كل منها يرى في نفسه أحقيَّته بالخلافة والحكم، ولذا عوَّل كل حزبٍ من هذه الأحزاب المتصارعة على تبنِّي هذا النسق، من أجل تهميش خصومه السياسيين من الأحزاب الأخرى المناوئة، وتجريدهم من ثوب الفحولة، محاولة لإقصائهم وإبعادهم عن السُّلطة والحكم. ويجدر بالباحث –قبل الحديث عن نسق تهميش الآخر، بعدِّه نسقًا ثقافيًا في نصوص الشعر السياسي الأموي– أن يعرض أولاً لمعنى كلمة (التهميش) في المعاجم اللغوية.

فالتهميش لغةً من هَمَشَ، والهَمْشُ: كثرةُ الكلام والخَلَط في غير صواب[1]. ويُقال: تَهَمَّش الشئ إذا تآكَلَ وتحكَّكَ، والهامِشُ: حاشية الكتاب، والرجل عاش مُهمَّشًا: أي عاش في عُزلة، غير مندمج في المجتمع[2]. وهَمَّشَ الموضوع: أي جعله ثانويًا، ولم يجعله من اهتماماته المباشرة والمُلِحَّة، ويُقال: على هامش الأمر، أي: خارجٌ عنه، ومُلاحظة هامشية، أي: ليست في صُلب الموضوع[3]. إذن فكلمة التهميش، تحمل دلالات لُغوية عِدَّة، تتمحور في كُلِّيَّتِهَا حول صفة السَّلبيَّة؛ فهي الزائد من الكلام الذي لا يُجدي، وهي الشيء الثانوي الخارج عن دائرة الاهتمام، وهي أيضًا البُعد عن المتن/المركز.

وأمَّاكلمة التهميش Marginalizationفي المعنى الاصطلاحي، فتُعرف بأنها "عملية حرمان فرد أو مجموعة من حقّ الوصول إلى المناصب الهامة أو الحصول على الرموز الاقتصادية أو الدينية أو السياسية للقوة في أي مجتمع"[4].

ووفقًا لهذا التعريف، يخلص الباحث إلى تعريف نسق (تهميش الآخر)، بما يناسب دراستنا الحالية، على أنهتكريس الذات للمثالب والصفات القميئة،والمنبوذة في عُرْفِ الثقافة العربية إلى ذات الآخر، محاولة لسلب فحولته، ومن ثَمَّوضعه في خانة التهميش والإقصاء.

ولمَّا كان لكل حزب سياسي في العصر الأموي رؤيته الخاصة وثقافته التي يؤمن بها، والتي لا يرى غيره إلا من خلالها، فترتَّب على ذلك أن كل حزب فهم نسق التهميش فهمًا خاصًا، كُلٌّ حسب ثقافته؛ فها هي فرقة الخوارج، اعتقدت اعتقادًا خاطئًا أن المسلمين كلهم ضلّوا السبيل

إلا الخوارج، وأنهم وحدهم أهل الحقّ، ودينهم دين الرشاد، ولذا فهموا التهميش على أنه كفر وخروج عن المِلَّة، وقد أنتج تبنِّي شعرائهم لهذا النسق، تكفيرهم لغيرهم من بقيَّة الفرق الإسلامية، واحتكارهم للحقِّ والحقيقة، وقَصْرِهم معاني القرآن الكريم، ومراد الله عزَّ وجلَّ منها، على ما انتهت إليه تأويلاتُهم له، وبذلك ادَّعوا وجود مؤيِّدات لآرائهم وأفكارهم من القرآن، والأمر ذاته من السُّنَّة النبوية الكريمة؛ فرأى الخوارج أنهم أهل الحقِّ وأولياء الله تعالى، وخصومهم أهل الجور، والكفر والضلال.

وإذا كانت الخوارج قد رأت أن الفحولة هي سمت كل ذات عربية هجرت قضية التحكيم، ورأت إن الحكم إلا لله، فمن البديهي أن يكون التهميش هو سمت كل ذات عربية رضيت بحكم البشر، وعليه فإن كل من رضي بتحكيم الرجال في كتاب الله تعالى، صار –وفقًا لثقافة الخوارج– كافرًا/مهمشًاعدا الخوارج، فهم وحدهم المسلمون، والمؤمنون، والفئة القليلة، وأهل الحقِّ، وقد جاءت هذه الرؤية الثقافية واضحة في شعر الخوارج.فها هوالشاعر الخارجي "سُمَيْرَةُ بن الجَعْد" يحاول تهميش المسلمين من غير الخوارج، فراح يصمهم بأنهم ملاعين، غواة، حادوا عن الدين والإسلام الصحيح، إذ يقول[5]:

فَمَــنْمُبْلِغُ الحَجَّــاجِ أَنَّ سُمَيْــرَةً ... قَلَى كُلَّ دِيْنٍ غَيْرَ دِيْنِ الخَوَارِجِ
رَأَى النَّاسَ إلَّا مَـنْ رَأَى مِثْـلَ رَأْيِـهِ ... مَلَاعِيْـنَ تَراكِيْـنَ قَـصدَ المَنَاهِـجِ
يُسَائِلُنِـي الحَجَّـاجُ عَنْ أَمْـرِ دِيْنِهِ ... وَلَـيْسَ هَـوَاهُ لِلصــوَابِ بِـوَاشِــجِ
وَلا خَيرَ فِي الدُّنْيَا إِذَا الدِّيْنُ لَمْ يَكُنْ ... صحِيْحـًا وَلَــمْ يَصمُــدْ لِقَــصدِ المَخَـــارِجِ

ويعمد الشاعر في هذه الأبيات إلى تهميش الآخر وفقًا لنزعة التعالي الديني، حيث يبدأ الشاعر بتقديم مذهب الخوارج على أنه دين يغاير دين بقيَّة المسلمين، ويرتقي به، ويعتقد أنه وحده الدين الصحيح، ويدخل من هذا المنطلق –التعالي الديني– إلى تهميش الآخرين، عن طريق تكفيرهم، فهم –وفقًا لثقافة الشاعر– (مَلَاعِيْنَ) وبهذا الوصف يكون الشاعر قد وضع الآخر في خانة الكفر/التهميش، وقد وصل الشاعر بذلك إلى أقسى حالات التهميش لخصومه؛ لأن اللعنة تعني الطرد الأبدي من الخيرومن رحمة الله تعالى[6]، وهي صفة ملازمة لأهل الكفر في القرآن الكريم[7]. ويستمر الشاعر في تهميشه للآخرين،فراح يصفهم بأنهم (تَراكِيْنَ قَصدَ المَنَاهِجِ) لأنهم بمخالفتهم لمذهب الخوارج،حادوا عن الحقِّ وجانبوا الصَّواب، وضلّوا عن الدين

الصحيح، واندفعوا في طريق الغواية والضلال. فـ"جماع رأي الخوارج فيمن عداهم، هو رفض عدَّهم من أهل الملَّة...ويستوي في ذلك الأُمويين والشيعة والزبيريين"[8]، ونلاحظ أن الشاعر جعل رأيه من رأي أصحابه في قوله: (رأى الناس إلا من رأى مثل رأيه) ليؤكد على أن رؤيته الفردية تلك، إنما هي تعبير عن الرؤية الجماعية الثقافية لحزبه الذي ينتمي إليه. وبهذا استطاع الشاعر –عبر تبنِّيه لنسق التهميش– أن يجعل الآخر في خانة الكفر/التهميش.

ويخشى "عيسى بن فاتك الخطّي" أن يقضي نحبه في ظل حكم بني أُميَّة الذي يصفه بالجور والغدر، قبل أن يكون واجه ذلك بالخروج والثورة التي تروّع ذوي الإلحاد والبغي، ومن هذا المنطلق، يرسم الشاعر للأمويين نسقًا مبنيًا على ثقافة التهميش، فإذا به يقول[9]:

أَخَـافُ عِقَـابَ اللهِ إنْ مِـتُّ رَاضِـيًا بِحُكْـمِ عُبَيْـدِ اللهِ ذِي الجُـوْرِ وَالغَـدْرِ
وَأَحْــذَرُ أَنْ أَلقَــى إِلَهِــي وَلَــمْ أَرُعْ ذوي البَغْــيِ وَالإلحَــادِ فِــي جَحْفَــلٍ مَجــــــــــــــــــــرِ

وبإنعام النظر إلى النص نجد أن الشاعر يحاول أن يجعل من الآخر الأموي مهمشًا، فراح به يلصق به كل الصفات المنبوذة في عُرف الثقافة الإسلامية،والتي تفضي به إلى خانة التهميش؛ ففي البيت الأول يصم الشاعرُ الآخرَ بأنه (ذِي الجُوْرِ)، وفي هذه اللفظة إيماء إلى نسقتهميش الآخر الذي يشير به الشاعر إلى عبيد الله/الأمويين، فالشاعر يرى أن هذا الآخر لا يخرج عن كونه جائرًا، نظرًا لجوره وانحرافه عن حكم الله تعالى حينما رضي بقضية التحكيم وانحاز لحكم البشر، وثاني هذه الصفات (الغَدْر)، فالآخر الأموي في ثقافة الخارجي شخص غدار، لأنه لم يفيء لأوامر اللهوحكمه تعالى، وقام بتثبيت معاوية. ويستمر الشاعر في تهميشه للأمويين فراح يصمهم بأنهم (ذوي البَغْيِ)، فهولاء القوم –حسب ثقافة الشاعر– بغاة، ظالمين، لأنهم ولّوا أنفسهم على الناس ظلمًا، وبغيًا، وعلى كرهٍ منهم، دون الأخذ بمبدأ الشّورى. وفي النهاية يذكر أنهم (أَهْلُ إلِحَادٍ)، فالأمويون –وفقًا لثقافة الشاعر– لا يخرجون عن كونهم أهل كفر وإلحاد، لرفضهم الإذعان لحكم الله تعالى. إذن فالآخر –وفقًا لثقافة الخوارج– ليس سوى شخص جائر/غدار/باغٍ/ملحد/مهمش، وهذه مفردات نسق التهميش لدى فرقة الخوارج.

***

وأمَّا الأمويون فقد فهموا –حسب ثقافتهم– أن الفحولة لا تخرج عنهم، لامتلاكهم أهم وأقوى معايير الفحولة المتمثل في الاصطفاء والتفويض الإلهي للخلفاء الأمويين؛ فالله تعالى

اختارهم واصطفاهم دون سائر خلقهلخلافته في الأرض، وفوَّضهم في أمر رعيته لأنهم أهلٌ لذلك، وبالتالي فإن كل من رأى غير ذلك كان حظُّه التهميش والإقصاء، لأنه بذلك يكون –وفقًا لثقافة الأمويين – منكرًالإرادة الله تعالى/منشقًّا عن الجماعة/كافرًا/مهمشًا. ولذا كان يرى بعض خلفاء الدولة الأموية أن الخروج عن طاعة الدولة كفر يستوجب القتل، فقد جاء في العقد الفريد أن الخليفة عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج بن يوسف في أسرى "الجماجم" أن يعرضهم على السيف، وقال له: "فَمَنْ أقرَّ منهم الكفر بخروجه علينا فخلِّ سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فأضرب عنقه. ففعل الحجاج، فلمَّا عرضهم أتى بشيخ وشاب، فقال للشاب: أمؤمن أنت أم كافر؟ قال: بل كافر! فقال الحجاج: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر، فقال له الشيخ: أَعَنْ نفسي تخادعني يا حجاج؟ والله لو كان شيء أعظم من الكفر لرضيتُ به! فضحك الحجاج وخلّى سبيلهما...ثم أتي بسعيد بن جُبير، فقال له: أكافر أنت أم مؤمن؟ قال: ما كفرتُ بالله منذ آمنتُ به. قال: اضربوا عُنُقَهُ"[10]. وقد جاء شعر الحزب الأموي حاملاً لهذه الرؤية، فها هو "نابغة بني شيبان" يحاول –في خطابه للوليد بن عبد الملك– أن يرسم لأعداء السُّلطة الأموية نسقًا مبنيًا على ثقافة التهميش، فإذا به يُنزِّلهُم منزلة الكفار والمشركين، فيقول[11]:

قَسْـرًا عَـدوَّك، إنَّ الضَّـغْنَ قَـاتِلُهُمْ ... وَإنَّهُـمْ إنْ أَرَادُوا غَـدْرَةً تَعِسُـوا

لَا يُبْصِـرُونَ وفِـيْ آذَانِهِـمْ صَـمَمٌ ... إذَا نعشـتَهُمُ مِـنْ فِتْنَـةٍ رَكَسُـوا

هُـمُ الَّـذِيْنَ سَـمِعْتُ اللهُ أوْعَـدَهُمْ ... اَلْمُشْـرِكُونَ وَمَـنْ لَـمْ يَهْوَكُمْ نَجِسُ

ويحاول الشاعر في هذا النص أن يضع خصوم الخليفة في خانة الكفر/التهميش، ولذا فراح يُلصق بهم الصفات السَّلبية والقميئة التي تنبذها الثقافة الإسلامية، وتضعهم في خانة التهميش، ففي قوله: (قَسْرًا عَدوَّك، إنَّ الضَّغْنَ قَاتِلُهُمْ)، إيماء إلى نسق التهميش الذي يشير به الشاعر إلى أعداء الخليفة، فأعداء الخليفة –وفقًا لثقافة الشاعر– أهل حقد شديد على الدولة الأموية، وقَسرًا سيقتلهم هذا الحقد والغل. ويستمر الشاعر في تهميش أعداء السُّلطة فيقول: (لَا يُبْصِرُونَ وفِيْ آذَانِهِمْ صَمَمٌ)، وتمثل هذه الجملة أيضًا إيماء إلى نسق التهميش الذي يشير به الشاعر إلى أعداء السُّلطة، فهم –وفقًا لرؤية الشاعر– لا يرون الحقَّ ولا يسمعونه كمن بآذنهم صمم، وقد أشار الشاعر بهذه الجملة إلى المعنى القرآني للآية الكريمة التي تقول: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[12]، وعمد الشاعر إلى استدعاء هذا المعنى القرآني في الخلفية الثقافية للمتلقي، ليؤكد له أن معارضي السُّلطة الأموية، لا يخروجون عن كونهم كفارًا/مشركين/مهمشين. ولم يقف الشاعر في تهميشه للأعداء عند هذا الحدّ، بل راح يقول: (إذَا

نعشتَهُمُ مِنْ فِتْنَةٍ رَكَسُوا)، فقد أراد الشاعر من خلال هذه الجملة أن يصم أعداء السُّلطة بأنّهم أهل فتنة وضلال، فكلما نهضوا من الفتنة عادوا إليها مرة أخرى. ثم يعود الشاعر مجددًا لينعت الآخر بصفة الشِّرك فيقول: (هُمُ... اَلْمُشْرِكُونَ وَمَنْ لَمْ يَهْوَكُمْ نَجِسُ)، وقد استدعى الشاعر بهذه الجملة، المعنى القرآني للآية الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[13]. فالشاعر يلحّ في إقصائه للآخر المخالف على نعته بصفة الشِّرك والكفر، حتى يتسنّى لهم قتله وسفك دمه باسم الدين، لأنه أصبح –بكل بساطة– كافر، وفي قتله تقرُّب إلى الله تعالى، فـ"الحكم بالكفر على إنسان ما، في عصر مازال قريبًا من عهد الرسول صلَّى الله عليه وسلم، يوجب على المسلمين قتاله على كفره، وإعادته إلى دين الله تعالى أو القضاء عليه"[14].

ومن شعراء بني أُميَّة أيضًا"أعشى ربيعة"،هذا الشاعر الذي عُرِفَ بشدَّة ولائه وتعصُّبِهِ للأمويين[15]، نراه يحاول أن يسلب الزبيريين فحولتهم ويضعهم في خانة التهميش، فإذا به يقول[16]:

آلُ الزُّبَيْــرِ مِــنَ الخِلَافَــةِ كــالَّتي عَجِـلَ النِّتــاجُ بِحَمْلِهَـا فَأَحَالَهَـا

أَوْ كَالضِّــعَافِ مِــنَ الحُمُوْلَــةِ حُمِّلَــــــــــــــــــــتْ مَـالَا تَطِيْــقُ فَضَـيَّعَتْ أَحْمَالَهَـا

قُوْمُـوْا إِلَيْهِـم لَا تَنَامُـوْا عَنْهُــمُ كُـــمْ لِلْغُـوَاةِ أَطَلْتُــم إِمْهَالِهَـــا

وبإنعام النظر إلى النص، نجده يحتوي على نسقين: أحدهما ظاهر، ويتمثل في السُخرية، فظاهر النص يُفضي إلى ضرب من السخرية والتهكُّم، لكن باطنه يحتوي على نسق آخر مضمر يتمثّل ثقافيًا في التهميش، ويمكن الكشف عن هذا النسق المضمر من خلال قول الشاعر في البيت الأول: (عَجِلَ النِّتـاجُ بِحَمْلِهَا فَأَحَالَهَا)، ففي هذه الجملة إيماء إلى نسق التهميشالذي يشير به الشاعر إلى الزبيريين، إذ يرى الشاعر من خلال هذه الجملة ضرورة إبعادهم وإقصائهم، لأنهم يصلحون لتولِّي الخلافة فهم ليسوا أهلاً لها، فهم كناقة ضعيفة حملت، ولكن لم تكمل حملها وسقط جنينها قبل أن يكتمل في رحمها. كما أنهم لا يصلحون للخلافة أيضًا لأنهم ضعاف، فهم كالناقة الضعيفة التي حملت فوق قدرها وطاقتها (فَضَيَّعَتْ أَحْمَالَهَا)، وهذه الجملة أيضًا إيماء إلى نسق التهميش الذي يشير به الشاعر إلى خصومه الزبيريين، لأن الشاعر يرى من خلالها أن الزبيريين لا يصلحون لتولِّي الخلافة، لأنهم يشبهون ناقة ضعيفة ألقت حملها وأفسدته، ثم يردف الشاعر بالأمويين سمة أخرى من سمات التهميش، فراح يصممهم بأنهم (غواة) مُطالِبًا بني أمية بتعقُّبِهم ودحرهم، ومن ثَمَّ قتلهم حيث ثقفوهم. فالنص بنسقه

الظاهر، يعكس ضربًا من السخرية والاستهزاء، بينما النص بنسقه المضمر، يسعى إلى تجريد الآخر من صفات القوة، وإضفاء صفات الضعف والخور، محاولة لنفيه وتهميشه.

***

وأمَّا الذات الشيعية فقد رأت أنها الأفضل والأحقّ بالإمامة من غيرها، نظرًا لقرابتها من النبي صلى الله عليه وسلم، فهم شيعته، وآل بيته، زِدْ على ذلك مسألة الوصاية التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم – على حدِّ زعمهم – لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه قبل وفاته، والتي جعلتها الشيعة من أهم سمات الفحولة، وبالتالي فإن كل من رأى غير ذلك كان حظّه التهميش والإقصاء، فالأمويون بتثبيتهم معاوية بن أبي سفيان صاروا –وفقًا لثقافة الشيعة– معتدين على حقّ آل البيت الشَّرعي في الخلافة بالظلم والقهر والاغتصاب، ذلك لأن هذا الأمر –تثبيت معاوية– يمثل رفضًا صريحًا واعتراضًا بيِّنًا على ما أمر به الله عز وجلَّ، وأوصى به نبيه الكريم لعلي بن أبي طالب، على حدّ زعم الشيعة، وبالتالي فإن الآخر الأموي –من وجهة الذات الشيعية– لا يخرج عن كونه شخص ظالم معتدٍ، مغتصب للخلافة التي هي حقٌّ بيِّنٌ لآل البيت، وبالتالي فهو كافر/مهمش، وقد جاءت أشعار الشيعة حاملة لهذه الرؤية الثقافية. فها هو "الكُمَيْتُ بن زَيْدٍ الأَسَدِي"، يحاول أن يضع الأمويين في خانة التهميش، فراح يلصق بهم كل الصفات والمثالب التي تسلبهم فحولتهم، وتُجرِّدَهُم من ثوب السياسة والدين معًا، وإذ به يبدأ أبياته متعجبًا من أمر هذه الأمة التي تصمُّ الآذانَ، وتغُضُّ الطَّرفَ عما تقوم به هذه السُّلطة الجائرة من ظلم وبغي تجاه المسلمين، ثم أخذ يُحَذِّرُ من أن الأمة –في ظل هذه السُّلطة الفاسدة– على حافة الهاوية، لأنها لا تسير وفقًا لقوانين الشريعة الإسلامية، فهؤلاء الحكام أعادوها إلى جاهليتها مرة أخرى، حينما عطَّلوا الأحكام الشرعية، وتركوا الناس يعانون الضيم وشظف العيش، ثم راح يسخر من الخليفة الأموي (هشام بن عبد الملك)، ويتهمه بالنِّفاق، وبعدها يطالب الحكام الأمويين بإعطاء رد مقنع على هذه الحالة البائسة التي تعيشها الناس في ظل سياستهم الفاسدة الجائرة، كما راح يزدري الحكام الأمويين، ويتهمهم بإهمال تعاليم الدين والوحي، وجعلها وراء ظهورهم، حينما جعلوا أنفسهم ملوكًا على الناس كملوك الفرس الجبابرة الطغاة. يقول الكميت[17]:

أَلَا هَــلْ عَــمٍّ فِــيْ رَأْيِــهِ مُتَأَمِّــلُ	وَهَـلْ مُـدَبِرٌ بَعْـدَ الإِسَـاءَةِ مُقبِـلُ
وَهَـلْ أُمَّــةٌ مُسْــتَيْقِظُوْنَ لرشــدِهِم	فَيكشِــفُ عَنْــهُ النَّعْسَــةَ المُتَزَمِّــلُ
فَقَـدْ طَـالَ هَـذَا النَّـوْمُ واسْـتَخْرَجَ الكَـــــــــــرَى	مَسَـاوِيَهم لَـوْ أَنَّ ذَا المَيْـلِ يَعْـدِلُ
وَعَطَّلَــتِ الأَحْكَــامُ حَتَّــى كَأَنَّنَــا	عَلَــى مِلَّــةٍ غَيْــرِ الَّتِــي نَتَنَحَّــلُ
	وَأَفْعَــالَ أَهْـلِ الجَاهِلِيَّــةِ نَفْعَــلُ

كَــلَامُ النَّبِيِــيْنَ الهُــدَاةِ كَلاَمُنَــا عَلَــى أَنَّنَــا فِيْهَــا نَمُــوتُ وَنُقتَــلُ
رَضِــيْنَا بِــدُنْيا لَا نُرِيْــدُ فِرَاقَهَــا يُجَــدُّ بِنَــا فِــي كُــلِّ يَــوْمٍ وَنَهْــزِلُ
أَرَانَــا عَلَــى حُــبِّ الحَيَــاةِ وَطُوْلِهَــا لَــهُ حَــارِكٌ لا يَحْمِلُ العِبْءَ أَجْزَلُ
نُعَــالِجُ مُرْمَقًّــا مِــنَ العَــيْشِ فَانِيًــا صَــلَاحَ أَدِيْــمٍ ضَــيَّعَتْهُ وَتَغْمُــلُ
كَحَالِئَــةٍ عَــنْ كُوْعِهَــا وَهِــيَ تَبْتَغِــي

ويحاول الشاعر في هذا النص أن يضع خصومه الأمويين في خانة التهميش، فراح يسلبهم كل المناقب والصفات الدينية –وأيضًا السياسية– التي تُجرّدهم من فحولتهم، وتفقدهم شرعيتهم، ليخلق منهم ذاتًا/ضعيفة/غائبة/مهمشة/غير مؤهلة لتولّي الخلافة التي يجب أن تكون في هذه الذات الشيعية الفحولية، ولذا أخذ يُكرّس لخصومه من بني أمية الصفات السَّلبية التي تجرّدهم من شرعيتهم، بل وتجرّدهم من إسلامهم، وتضعهم في خانة الكفر/التهميش، وذلك حينما يقول:(وَعَطَّلَتِ الأَحْكَامُ)، وهذه الجملة إيماء إلى نسق التهميش الذي يشير به الشاعر إلى السُّلطة الأموية،لأن الشاعر استطاع من خلالها أن يزدري الحكم الأموي، ويصمه بأنه مخالف للشريعة الإسلامية، فقد عطَّلوا الأحكام، ومنعوا إقامة الحدود، حتى أصبحت الأمة وكأنها خارجة عن ملة الإسلام، فبنو أمية –وفقًا لرؤية وثقافة الشاعر– أعادوا الأمة إلى جاهليتها من جديد (وَأَفْعَالَ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ نَفْعَلُ). فالشاعر بذلك إنما يعبر عن رؤيته تجاه الحكم الأموي الذي بات "مناقضًا لمبادئ الإسلام كما استقرَّت ومُورست من قبل بشأن الخلافة"[18]، فالحياة العربية أصبحت في العصر الأُموي "جاهلية –أو كالجاهلية– في أنحاء جمَّة"[19]، ولذا يرى الشاعر أن هؤلاء لا يصلحون أن يكونوا خلفاء للمسلمين. ثم يواصل الشاعر تهميشه للآخر الأموي وتصوير ما آلت إليه حالة الناس في ظل جورهم، فيقول: (يُجَدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ) و (نُعَالِجُ مُرْمَقًّا مِنَ العَيْشِ فَانِيًا)، وقد أراد الشاعر من خلال هاتين الجملتين أن يضع السُّلطة في خانة التهميش السياسي،ففي هاتين الجملتين دلالة على حالة الذُّل والهوان والخسَّة التي يلقاها الناس على أيدي الأمويين، فالناس يعيشون في ظل هذا الحكم الظالم، عيشة دنيئة خسيسة، لا يقوون على تحمُّلِها، ولذا فإن الشاعر يرى ضرورة إقصاء/تهميشهذه السُّلطة الجائرة، لأنها لا تقدر على رعاية الناس وتُلحِقَ بهم الذُّل والهوان. ويستمر الشاعر في تهميشه للسُلطة الأموية وسياستها الفاسدة، من خلال هذه الصورة التشبيهية (كَحَالِئَةٍ عَنْ كُوْعِهَا وَهِيَ تَبْتَغِي ، صَلَاحَ أَدِيْمٍ ضَيَّعَتْهُ وَتَغْمُلُ)، وقد استطاع الشاعر من خلال هذه الصورة التشبيهية أن يضع السُّلطة الأموية في موضع التهميش والإقصاء، إذ إنه يُشبّه حالة السُّلطة الأموية التي تبتغي صلاح ما أفسدته،

بحالة المرأة التي تضع الأديم على يدها، وتأخذ ما عليه من الوسخ، ثم تبلّه وتلفّه وتتركه حتى يفسد ثانية، فالشاعر أراد أن يُصرّح من خلال هذه الجملة بأن هؤلاء الحكام لا يصلحون – إطلاقًا– أن يكونوا ساسة للناس ورعاة لهم، ليس لكونهم أفسدوا أمرهم وحسب، بل لأنهم لا يستطيعون –إطلاقًا– إصلاح ما أفسدوه. فأيُّ تهميش وأي إقصاء بعد ذلك!

وبعد أن استطاع الشاعر تهميش الأمويين وسياستهم على وجه العموم، فإذا به يعمد إلى تهميش خليفتهم (هشام بن عبد الملك)،فإذا به يقول[20]:

فَتِلْكَ أُمُورُ النَّاسِ أَضْحَتْ كَأَنَّهَا ... أُمُورُ مُضِيْعٍ آثَرَ النَّوْمَ بُهَّلُ

مُصَيِّبٌ عَلَى الأَعْوَادِ يَوْمَ رُكُوْبِهَا ... لِمَا قَالَ فِيْهَا مُخطِيءٌ حِيْنَ يَنْزِلُ

فَيَا سَاسَتَا هَاتُوا لَنَا مِنْ جَوَابِكم ... فَفِيْكُمْ لعَمْرِي ذُو أَفَانِيْنَ مِقْوَلُ

أَأَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيْهِ وَأَنْتُمُ ... عَلَى الحَقِّ نَقْضِي بِالكِتَابِ وَنَعْدِلُ

أَمُ الوَحَيُ مَنْبُوْذٌ وَرَاءَ ظُهُوْرِنَا ... فَيَحْكُمُ فِيْنَا المَرْزُبَانُ المُرَقَّلُ

لَنَا رَاعِيَا سَوْءٍ مُضِيْعَانِ مِنْهُمَا ... أَبُو جَعْدَةَ العَادِيْ وَعَرفَاءُ جَيْأَلُ

أَتَتْ غَنَمًا ضَاعَتْ وَغَابَ رُعَاؤُهَا ... لَهَا فُرْعُلٌ فِيْهَا شَرِيْكٌ وَفُرْعُلُ

ويحاول الكميت في هذا النص، أن يسلب الخليفة (هشام بن عبد الملك) فحولته، ويذعه في خانة التهميش،عبر هذه الجملة الثقافية (مُضِيْعٍ آثَرَ النَّوْمَ بُهَّلُ)، ففي هذه الجملة إيماء إلى نسق التهميش الذي يشير به الشاعر إلى الخليفة، إذ تُعَدّهذه الجملة دعوة صريحة من الشاعر إلى تهميش وإقصاء الخليفة/الأمويين، وإبعاده عن سُدَّة الحكم، لأنه يهمل الناس، ولا يقدر على رعايتهم، ويتركهم وشأنهم كحال الإبل المُهمَلة، التي لا راعي لها يصونها ويحفظها. ويستمر الشاعر في إقصائه للخليفة عبر عنصر الطِّباق حين يصفه بأنه (مُصَيِّبٌ عَلَى الأَعْوَادِ) و (مُخطِيءٌ حِيْنَ يَنْزِلُ)، وقد أراد الشاعر من خلال هذه المقابلة أن يزدري الخليفة، ويصمه بالنِّفاق، حيث يذكر أن الخليفة مُصيب فيما يقول إذا اعتلى المنبر، وإذا نزل خالف فعله ما قال، فكيف لشخص مثل ذلك يكون خليفة الله تعالى في الأرض؟!

إن تعمُّد الشاعر نعت الأمويين بكلمة (ساسة) بعد تكريسه لهم كل هذه المثالب، وتجريده لهم من ثوب السياسية والتَّدين، لهو ضرب من السخرية والتَّهكم الذي يتساوق مع ثقافة النسق القائم على التهميش. ثم تتعالى نغمة التهميش لدى الشاعر عندما يقول متسائلاً: (أَمُ الوَحَيُ مَنْبُوْذٌ وَرَاءَ ظُهُوْرِنَا ظهورنا، فَيَحْكُمُ فِيْنَا المَرْزُبَانُ المُرَقَّلُ)، فهذه الجملة تحمل في طياتها هجاءً

لاذعًا ولكن بطريقة مُضمرة خفيَّة؛ إذ إن الشاعر يطالب السُّلطة الحاكمة بإعطاء إجابة مقنعة عن الحالة البائسة التي تعيشها الناس في ظل سياستها الفاسدة، ويتساءل، هل الناس أصبحوا مشركين، ولهذا يحكم فيهم الملوك الجبابرة الطغاة كملوك الفرس؟! فالشاعر يقدِّم تهميشه للسُلطة في هيئة سؤال. وفي كلمة (المَرْزُبَان) أيضًا إيماء إلى نسق التهميش الذي يشير به الشاعر إلى خلفاء بني أمية، الذين لا يصلحون لرعاية الناس، لأنهم –وفقًالثقافة الشاعر– ليسوا خلفاءً بل ملوكًا طغاة جبارين، مثل ملوك الفرس والروم. لقد استطاع الشاعر من خلال هذا البيت أن يُنفِّرَ الناس من حكم الأمويين، حيث "إن صورة الحكم في النص توحي بتوحّد الشخصيتين ليصبحا شخصية واحدة في طبيعة التصرُّف ونمط السّلوك، أي في الانتقال من شخصية عربية ماجدة إلى شخصية فارسية تمثل شيئًا سلبيًا في نظر المسلمين لارتباطها عندهم بالظلم والطغيان"[21].

ثم يواصل الشاعر تهميشه إلى الخلفاء الأمويين، فراح يشبههم بقوله: (أبو جعدة العادي، وعرفاء جيأل)، والشاعر إنما يشير بذلك إلى الخليفة هشام بن عبد الملك/أبو جعدة(الذئب)، وإلى خالد القسري، واليه على العراق/عرفاء جيأل(الضَّبع)، وقد شبَّه الشاعر حكام بني أمية بهذه الحيوانات في جورها وغدرها. إذن فكلمتي (أبو جعدة/عرفاء) من مفردات نسق الإقصاء الذي يشير به الشاعر إلى حكام بني أمية، فبنو أمية –وفقًا لثقافة الشاعر– حينما ولُّوا أنفسهم على الناس، فقد غدروا بآل البيت، وسطوا على حقِّهم الشَّرعي في الخلافة، ولذا شبههم بهذه الحيوانات المعروفة بغدرها وخسَّتها. إن تصوير الحاكم أو الخليفة الأموي بالذئب ينطوي على دلالة تقضي بموت شعوره الإنساني ووقوعه أسير غريزته الحيوانية، إذ تؤكد هذه الصورة حالتي الغدر والخيانة، فأبو جعدة (كُنية الذئب) يظهر في الليل عادة، والليل غطاء للغدر، والخيانة تسري على الحيوانات مثلها مثل البشر، وليس هذا وحسب بل إن هذه الصورة تتلون بلون المشاعر التي يشعر فيها الإنسان تجاه الآخر، فمشاعر الكره التي جعلت الشاعر الخليفة الأموي بهذه الصورة المرعبة هي غير مشاعر الحُبّ التي جعلته يصور سياسة آل البيت بالصورة المُثلى[22].

إن نعت الشاعر للخليفة الأموي بـ (الذئب)، ربما يكمن وراءه مغزى ثقافي أبعد من الخيانة والغدر الذي يشتهر به هذا الحيوان، ذلك لأن الذئب–كما هو معلوم–لا يأكل سوى الغنم الشَّاردة عن القطيع، وهو لا يأكل الغنم إلا في غيبة الرَّاعي، وبالتالي هو حيوان جبان، لا يقدر على المواجهة، وكذلك بنو أميَّة، كانوا طامعين في أمر الخلافة، ولم يجرؤوا بالوثوب عليها إلا بعد غياب راعي الأمة (بنو هاشم) وولي أمرها، المُمَثَّلُ في شخص النبي صلَّى الله عليه وسلم، وكأن الأمة كلها مختزلة في بني هاشم! فكأن الشاعر أراد من خلال هذا الوصف أن يخلع على الأمويين صفة الجُبن وعدم القدرة على المواجهة، إضافة إلى صفات الخيانة والغدر.

كما تتجلَّى الدلالة النسقية أيضًا من خلال قول الشاعر: (أَتَتْ غَنَمًا ضَاعَتْ وَغَابَ رُعَاؤُهَا، لَهَا فُرْعُلٌ فِيْهَا شَرِيْكٌ وَفُرْعُلُ)، فالدلالة الظاهرة في البيت هي هلاك الناس عندما تكون بلا إمام يحفظهم ويرعاهم، وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى الحقيقي بالتشبيه، فهلاك الغنم بلا راعٍ كهلاك الناس بلا إمام، وأما الدلالة الخفيّة التي يرومها الشاعر من وراء هذا البيت هي تهميشالأمويين وإقصائهم، لأنهم –وفقًا لثقافة الشاعر–لا يصلحون أن يكونوا رعاة للناس، بعد أن أهملوهم وتركوا الضباع/الولاة، تعبث بهم،وتخوض في دمائهم.

وهكذا تجلَّت ثقافة التهميش والإقصاء لدى شعراء الأحزاب السياسية في العصر الأُموي، تلك الثقافة التي شكَّلت جزءًا مُهمًّا من اللاشعور الجمعي للعقلية العربية، والتي أصبحت في ذلك العصر كالسُّوس الذي بات ينخر في جسد الأُمَّة،"حيث صارت لغة الإقصاء والتهميش جزءًا مهمًّا من السلوك والحراك السياسي والعسكري للأحزاب السياسية،ومارسوا من خلاله أبشع أنواع القتل والتعذيب بحقِّ كل من يخالفهم في الرأي أو العقيدة أوالانتماء"[23]. ولمَّا كان لكل حزب سياسي في العصر الأُموي رؤيته الخاصة وثقافته التي يؤمن بها، والتي لا يرى غيره إلا من خلالها، فترتَّب على ذلك أن كل حزب فهم نسق التهميش فهمًا خاصًا، كلٌّ حسب ثقافته؛ فقد فهم الأُمويون –حسب ثقافتهم– أن الحكم الأُموي لا يجوز معارضته أو الخروج عليه لأنه مُقدَّر من الله تعالى، فالخلفاء الأُمويون اصطفاهم الله عزَّ وجلَّ دون سائر الخلق لأنهم أهلٌ لذلك، وبالتالي فإن كل من رأى غير ذلك، كان حظّه التهميش. ولقد رأت الذات الشيعية أنها الأفضل والأحقّ بالإمامة من غيرها، نظرًا لقرابتها من النبي صلى الله عليه وسلم، لاسيّما وأن النبي صلَّى الله عليه وسلم قد أوصى لهم بالإمامة قبل وفاته كما زعموا، وعليه فإن كل من رأى خلاف ذلك صار مُهمَّشا. وأمَّا فرقة الخوارج اعتقدت اعتقادًا خاطئًا أن المسلمين كلهم ضلّوا السبيل إلا الخوارج، وأنهم وحدهم أهل الحقّ المطلق، ولذا فهموا التهميش للآخر على أنه كفر وخروج عن المِلَّة، ومن هنا "تبرز عقلية التخاصم جليّة بمكوناتها، حيث كل طرف يُقيّم الآخر بوصفه المرفوض والذي يجب إلغاؤه"[24].

الهوامش:

1() يُنظر: ابن منظور: لسان العرب، تحقيق/ عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة، دار المعارف، (د.ت)،مادة (هَمَشَ).

2() يُنظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2004، مادة (هَمَشَ)، ص994.

3() أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المُعَاصِرة، ج4، ط1، القاهرة، عالم الكتب، 2008، ص2365.

[4]() جوردن مارشال: موسوعة علم الاجتماع، ترجمة/ أحمد عبد الله زايد وأخرون، مراجعة وتقديم/ محمد الجوهري، ج1، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة،2000، ص493.

[5]()إحسان عباس (جمع وتقديم): شعر الخوارج، لبنان–بيروت، دار الثقافة، 1974،ص122.

[6]()ينظر: ابن منظور، مادة (لعن).

[7]()فقد جاءت صفة اللعن ملازمة لأهل الكفر في آيات قرآنية كثيرة، نذكر منها –على سبيل المثال لا الحصر– قوله تعالى: "وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ" سورة البقرة، الآية 88. وقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" سورة البقرة، الآية:161. وقوله تعالى أيضًا: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ" سورة المائدة، الآية 78.

8() صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، ط1، القاهرة، دار الثاقفة العربية، 1986، ص186–187.

[9]()إحسان عباس: شعر الخوارج، ص56.

[10]() ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق/ محمد سيد العريان، ج5، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1953، ص286–287.

[11]()نابغة بني شيبان: الديوان، ط3، القاهرة، دار الكتب المصرية، 2000، ص28.

[12]() سورة الإسراء: الآية 46.

[13]()سورة التوبة، الآية 28.

[14]() علي جَفَّال: الخوارج تاريخهم وأدبهم، ط1، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية،1990، ص61.

[15]()شوقي ضيف: العصر الإسلامي،ط(20)، القاهرة، دار المعارف، (د.ت)، ص340.

[16]()أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج(18)، ط1، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1928،ص134.

[17]()الكميت بن زيد الأسدي: الديوان، جمع وتحقيق/ محمد نبيل طريفي، ط1، بيروت، لبنان، دار صادر، 2000، ص587–594.

[18]() أحمد معيطة: الإسلام الخوارجي "قراءة في الفكر والفن ونصوص مختارة"، ط1، اللاذقية– سوريا، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، 2000، ص52.

19() وهب رومية: بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأُموي "قصيدة المدح نموذجًا"، دمشق، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 1997، ص337.

[20]() الكميت: الديوان، 591-594.

21() صالح محمد حسن: صورة الخليفة في الشعر الأموي، ط1، اللاذقية- سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2012، ص71.

22() نفسه، ص71-72.

23() أحمد عواد الخزاعي: ثقافة الإقصاء في جذور الفكر العربي والإسلامي المتطرف، مقال منشور بصحيفة المثقف الإلكترونية، العدد 4537، الأربعاء 2019/2/6.

24() إبراهيم محمود: الفتنة المُقدَّسة- عقلية التخاصم في الدولة العربية الإسلامية، ط1، بيروت، لبنان، رياض الريس للكتب والنشر، 1999، ص146.